أخلاقيات الحماية الاجتماعية في شعر الحجيجة

م . د. زينب حسين كاظم المحنه
جامعة القادسية / كلية التربية
zozorahman2016@gmail.com

مخلص :

وفرت البيئة الجاهلية أخلاقيات عامة في التعامل بين كل الأفراد رجالاً ونساءً وأطفالاً ، كما وفرت أخلاقيات خاصة مع المرأة تحديداً ، مما وفر بصورة مباشرة أو غير مباشرة حماية لذلك المجتمع ، وهو ما أثر على شخصية نساء ذلك العصر فجعلهن ذوات شخصية قوية ، و قرارثابت ، و رأي حكيم ، وصوت مسموع ، لا تقبل الضيم على نفسها ، و لا على غيرها ، وهو ما مثله موقف الشاعرة صفية الشيبانية الملقبة بـ (الحُجيجة) مع الهند بنت النعمان ، وإجارتها لها بعد أن اعتذر عن إجارتها الرجال ، ومما يجدر بنا قبل ذكر تفاصيل ذلك الموقف هو معرفة مفهوم أخلاقيات الحماية الاجتماعية للمجتمع الجاهلي عموماً ، و المرأة خصوصاً ، ثم موقف صفية وكيف كانت أشعارها ، و كيف أثر كل ذلك في قصائدها .وقد استدعت خطة البحث الذي قسمناه إلى مباحث الأول في مفهوم الجماية الاجتماعية بقسمية العام للمجتمع ككل والخاص للمرأة تحديداً ، أما المبحث الثاني فموقف صفية من الهند وإجارتها لها واستجابة ، في ما كان المبحث الثالث اشكال الحماية الاجتماعية وصورها من خلال اشعار صفية . ويأتي هذا البحث لتسليط الضوء على شاعرة من شواعر الجاهلية المؤثرات والمتأثرات بالمجتمع الجاهلي و أخلاقياته وممن مثلت ذلك المجتمع في شعرها وجعلت منه هوية واضحة وانطباع دائم .

مقدمة :

الحمدلله حمداً كثيراً طيباً ، وصلى الله على محمد خير من تعلم بالقلم وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين وبعد :

فإن بطلة بحثنا هذا هي صفية بنت ثعلبة الشيبانية شاعرة ملقبة بـ(الحُجيجة) إمرأة جاهلية جعلت من الشعر رسالة لرد الظلم وإغاثة الملهوف ، انتصرت للقومية العربية بموقفها وشعرها وهي في شعرها وموقفها من أهم أسباب حماسة العرب وانتصارهم في معركة ذي قار الشهيرة ، فقد استجارت (هند بنت النعمان) بقبائل العرب خصوصاً قبيلة الشاعرة (الحجيجة) وأجارتها شاعرتنا بالرغم من اعتذار غيرها من الرجال والقبائل وخوفهم من كسرى وجبروته وقوته فكانت مثالاً للشجاعة والقوة والأنفة كما سنفصل في البحث . وقد اعتمدنا في ارفاق نماذج شعر الدراسة على كتاب (شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام لبشير يموت) وقد ذكرها كأول شاعرة ، أما الدراسات السابقة عن الشاعرة فلم نعثر على دراسات أكاديمية كافية تناسب أهمية الشاعرة وشعرها وتنفرد بها كموضوع دراسة سوى بحث منشور في مجلة بعنوان : (أنفة المرأة العربية في العصر الجاهلي / الحجيجة الشيبانية انموذجا) للدكتور عبد الرحمن الفيتوري .

والدراسات الأخرى كانت ترد ضمن شواعر جاهليات ولذلك كان هذا دافعا ومشجعا لاختيارها عنوانا لدراستنا هذه .

المبحث الأول : مفهوم الحماية الاجتماعية في المجتمع الجاهلي

عُرف المجتمع الجاهلي بتمايزه الطبقي اجتماعيا واقتصادياً وحتى ثقافياً ، ولعل التمايز هذا جاء مع المجتمع بل أنطلق منه ، حيث جاء هذا التمايز بين أفراد القبيلة الواحدة مما جعلها على قسمين (عبيد ، و أحرار) ، والمجتمع عموما انقسم إلى أقسام يتحكم فيه المستوى الاقتصادي أو المعاشي للفرد ، وكذلك المستوى الاجتماعي ، والمستور الديني ، وبما أننا بصدد الحديث عن المكانة الاجتماعية سنتوقف عند ما أنتجه المستوى الاجتماعي ، بالرغم من صعوبة الفصل الجاد والدقيق العوامل المؤثرة ومرجعيات تلك المستويات؛ ذلك لإن المكانة الاجتماعية للفرد الواحد ضمن القبيلة كثيراً ما يتحكم فيها المستوى المادي المعاشي والديني وحتى السياسي بطرق مباشرة وغير مباشرة . انقسم المجتمع الجاهلي من أفراد القبيلة الواحدة كما اتفقت أغلب المصادر على ثلاث طبقات:

الأولى : تمثل أبناء القبيلة الأصلاء ممن يجمعهم الدم وصلة القرابة أو النسب وهو جوهر القبيلة وأساسها الأهم .

الثانية : ويمثلهم فئة (العبيد) أي الرقيق ممن قَدِمَ من الحبشة ، أو البلاد المجاورة وفي الغالب أرتبطت تسميتهم ببشرتهم السوداء ، إلى جانب فئة أخرى هي فئة (الموالي) وهي نفسها الفئة الأولى لكن تم عتقهم .

الثالثة : يسمى بـ (الخلعاء) وهم ممن تم خلعهم من قبيلتهم الأم وانتموا إلى قبيلة جديدة ، وعادة ما يكون هذا الخلع أمام الناس وبصورة علنية ، وبالمقابل ينتقل الخليع إلى القبيلة الجيدة التي تقبله وتحميه فيما يكون وفياً هو لها ملتزما بعادتها وتقاليدها مدافعاً عنها كما لو كانت قبيلته الأصلية.[1]

اتصلت بهذه الطبقات الثلاث بفئاتها أخلاقيات شاعت في ذلك العصر حتى مثلت هويته الاجتماعية ونظامه السائد في تعامل الأفراد مع بعضهم البعض ، مثلت بعضها الجانب السلبي من تلك الأخلاقيات من قبيل الخمر و الميسر و الوأد والعصبية القبلية والثأر وغيرها مما اختصره القرآن الكريم بقوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (المائدة: ٩٠)، وكذلك في سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} (البقرة: ٢١٩)

وهنا يذكر لنا القرآن بعض تلك التصرفات السلبية وكيف أنه نهى عنها هي وغيرها مما لا مجال لذكره هنا ، حيث يركز البحث على بالجانب الأخلاقي الايجابي الذي مثل أخلاقيات حماية عاشها الجاهلي عموماً و المرأة الشاعرة خصوصاً ، ومن تلك الأخلاقيات التي تخص الحماية الاجتماعية الايجابية ما جعلناه على قسمين هما : أخلاقيات الحماية الجماعية (القبلية) وفيها يكون دفاع الفرد عن القبيلة ككل لأنها تمثل حاجز الحماية الأساس لكل فرد من الأفراد والدفاع عنها واجب لا يُختلف عليه ، و أخلاقيات الحماية الفردية (الفرد الواحد)وفيها يكون دفاع الفرد عن عائلته الأقرب المتكونه من الأم والأب والأخوة والابناء وهنا

الحماية تكون مقدسة لا يُقبل المساس بها بأي صورة ، ولاتصالهما ببعضهما من ناحية مظاهر تلك الأخلاقيات وما ارتبط بهما من سلوك ردي جماعي جاءت تلك الأخلاقيات عموما على قسمين :

القسم الأول : أخلاقيات الحماية اجتماعية العامة

١- الكرم :

لم تنافس خصلة الكرم أي خصلة أخرى في ما يتفاخر به الجاهلي وما يجعله أساس حياته ، خصوصاً أن الحياة القاسية التي يعيشها العربي في ذلك العصر تجعل من هذه الخصلة عنصر توازن طبقي حيث يأكل الفقير مما يفيض من الغني دون أن يشعر بحرج أو حاجة للطلب من الغني ، بل على العكس إنما يقدم الأغنياء كرمهم للفقراء وهم يفخرون ويبذولن بصدق ، فيوقدون النار انتظاراً لضيوفهم ويفرحون بهم ويرحبون بهم ويخصصون لهم الأوقات فلا يحمل المسافر أو الفقير أو غيره هم رحلته وطعامه ، فالعربي القديم معروف بكونه يكرم الضيف ويؤمن الخائف ويحمي من يطلب حمايته حتى لو كلفه الأمر أن يفتديه بنفسه . ويحضر هذا المعنى في شعرهم من خلال فخرهم بهذه النيران / الكرم ، و أن كلابهم لا تنبح على ضيوفهم لما تعودت من كثرة الناس ، من قبيل هذا المعنى قول عوف بن الأحوص : [٢]

ومستنبح يخشى القواء ودونه ... من الليل بابا ظلمة وستورها

رفعت له نارى فلما اهتدى بها ... زجرت كلابى أن يهرّ عقورها

واشتهر عندهم بالكرم الفياض كُثر ، مثل حاتم الطائى الذى ضربت الأمثال بكرمه، وهو يصوره فى كثير من شعره كقوله :[٣]

إذا ما بخيل الناس هرّت كلابه ... وشقّ على الضيف الغريب عقورها

فإنى جبان الكلب بيتى موطّأ ... جواد إذا ما النفس شحّ ضميرها

٢- الوفاء بالعهد :

لم يكن العرب يقدروا شيئاً أهم من الوفاء بالوعد ، فقد يبذل أحدهم نفسه مقابل ذلك الوعد أو تلك الكلمة التي قطعها على نفسه ، حتى يصل بهم الأمر إلى أن تعتبر القبيلة ملزمة بالوعد الذي يقطعها ابناؤها . وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب. وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء فى مجامعهم وأسواقهم، حتى يلحقوا به عار الأبد .[٤]

٣- اغاثة الملهوف :

وتشيع هذه الصفة عن العربي القديم ويتفاخر بها يلتزم بها ولا يتنازل عنها ، فالضعيف عندهم يُحمى حين يطلب الحماية بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، ويعفون عنه عند المقدرة ويتفاخرون بهذه الصفات ويمتدحونها عند أسياد قومهم ويهجون أي تقصير فيها حين يذمون أعدائهم ، العرب أشد اهتماما بحماية الجوار في الجاهلية، وهي من أهم متطلباتهم، " وللجوار حرمة كبيرة عندهم، فإذا استجار شخص بشخص آخر، وقبل ذلك الشخص أن يجعله جارا ومستجيرا به، وجبت عليه حمايته، وحق على المجار الدفاع عن مجيره والذب عنه وإلا عد ناقضا للعهد، ناكثا للوعد، مخالفا لحق الجوار" .[٥]

٤- عزة النفس والإباء :

كان العرب يتمدحون بالأنفة وإباء الضّيم، وكيف يقبلون الضيم، وهم أهل حرب وجلاد، ، يقول المتلمّس :[٦]

إنّ الهوان حمار الأهل يعرفه ... والحرّ ينكره والرّسلة الأجد

ولا يقيم على خسف يراد به ... إلا الأذلاّن: غير الأهل والوتد

هذا على الخسف معقول برمّته ... وذا يشجّ فلا يبكى له أحد

فهم لا ينكرون شيئا مثل إنكارهم للهوان والضيم، فهما السوأة الكبرى والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها.

وكل شئ إلا الهوان، وكان أقل شعور به يثيرهم، على نحو ما مر بنا من ثورة عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه فى بلاطه، وكان نازلا معها عنده، فاستل سيفه وقتله، وتغنى شعراء تغلب طويلا بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم.

القسم الثاني : أشكال الحماية الاجتماعية للمرأة الجاهلية

للمرأة عند العرب مكانتها العظمى فبها أرتبط شرف الرجال ، قوتهم وضعفهم ، مكانتهم وفخرهم ، قسوتهم ورقتهم ، كرمهم وبخلهم .. ، مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي حتى يومنا هذا قيمة عُليا ومرآةً واضحة لكرامة الرجل ، قيمة ليست قابلة للتفاوض أو التنازل ، رافقت الرجل في رحلة الحياة ورحلة الشعر ، و رحلة الموت (الحرب) ، هذه المكانة الإيجابية مع ما تقابله من سلبيات لا يخلو منها أي مجتمع جعل المرأة ذات شخصية قوية ، ودور هام ، ولها من صفات الرجال الخلقية الايجابية ، فالمرأة التي تربت على احترام رأيها وكلمتها ومكانتها ينعكس ذلك على طباعها وحديثها وهو ما سنجده في شاعرة بحثنا هذا ، وقبل أن نعرج على موقفها الدال على ما ذكرناه سنتوقف عند مكانة المرأة عموماً في المجتمع الجاهلي كون شاعرتنا أنموذجا لذلك أيضاً ، "ولعل الناظر في الموروث العربي للرجل يظن لوهلة أن الرجل فقط معروف بالأنفة والحمية في ما تكون المرأة بعيدة انما صورها على أنها ذليلة مهانة"[٧]، أو "الماكرة طائشة الرأي"[٨]، "ولكن هذه الأحكام تحتاج إلى دراسة فاحصة متأنية دقيقة تكشف عن حقيقة هذه المتناقضات بصورة جلية والنموذج لإزالة ذلك اللبس هو شعر صفية الشيبانية"[٩] . وقد كانت المرأة عند المجتمع الجاهلي تعامل على صنفين هما (الحرائر ، والإماء والجواري)[١٠] ، و لإن حديثنا عن المرأة العربية وأن الإماء والجواري من غير العربيات في الغالب ، سنكتفي بذكر مكانة الحرائر ، فقد كانت المكانة الأكبر والاحترام لهن ، فهن مخدومات لهن رأيهن وقرارهن ، يتزوجون منهن ويفخرون بهن ، ويرافقنهم في حروبهم وأسفارهم وقصص عشقهم في أشعارهم ، أما الإماء فلا حقوق لهن إلا ما ندر ، حتى حين يُنجبوا منهن ابناً لا ينسبونه لهم حتى يُثبت مكانته و شجاعته أو بطولته كما في قصة عنترة بن شداد المعروفة ، " وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهن منزلة سامية، فكن يخترن أزواجهن، ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن " [١١]. وبلغ من منزلة بعض شريفاتهن أنهن كن يحمين من يستجير بهن ويرددن إليه حريته إذا استشفع بهن، على نحو ما ردت فكيهة إلى السّليك بن السلكة حريته حين وقع أسيرا فى يد عشيرتها من بنى عوار [١٢]. وكانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من عرضهم، ولم يكن شئ.[١٣] فكانت صاحبة

رأي وقرار تختار زوجها وتتلقى عاطفة من أبيها وأخوتها ، تلبس الحرير والديباج والحلي وتتعطر بالمسك ، لها حقوقها ورأيها وقرارها ، ولعل هذه المكانة التي مثلت نوعاً من أنواع الحماية المجتمعية في العصر الجاهلي هو الذي مهد الطريق لحادثة مثل التي كانت بطلتها شاعرتنا صفية الشيبانية (الحجيجة) حين أجارت الهند بنت النعمان كما سنفصل في ما سيأتي .

المبحث الثاني : موقف صفية (الحُجيجة) من الهند (الحُرقة)

تطالعنا الدراسات التي تنقل لنا موقف الشاعرة صفية الشيبانية وهي " شاعرة جاهلية تُلقَّب بـ (الحُجَيْجَة)"[١٤] قيل لقوة حجتها أو منطقها وبرأيي أرتبط بأثر شعرها بالنفوس وقوة اقناعها للناس من خلاله ، عُرفت صفية بكونها ذات شخصية قوية ، و رأي الثبات و عقل الحكيم ، التي لم تقبل الضيم والظلم على إمرأة من بنات جنسها فقررت حمايتها لما تشربته من هي من أخلاقيات حماية لنفسها ولغيرها فلا تقبل الظلم ولا السكوت عنه مهما كلف الأمر فهي ذات النسب العريق الذي يعود " إلى قبيلة ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان من العرب الأصلاء ، وأخوها عمرو بن ثعلبة كان متراساً أحدى الحروب التي كانت بين العرب والعجم " [١٥]. "وقيل انها أخت عمرو بن ثعلبة بن اسعد بن همام بن مرة الشيباني وهو من شعراء ربيعة الجاهليين " .[١٦]

وقد تمتعت صفية بشخصية قوية ، ذات حكمة ورأي ثابت ، فكلمتها مسموعة بين أهلها وقومها ، وهي نتاج ما ذكرناه من أخلاقيات اجتماعية ايجابية مما أسهم في كونها حازت على مكانة المرأة الايجابية في ذلك العصر، وهذا ما جعلها تقبل إجارة هند بنت النعمان حين قصدتها بعد أن ضاقت بها الدنيا ولم تستطيع الاستجارة بأحد ، وما كان من صفية إلا أن تقبل تلك الإجارة ، بل وتطالب بحق هند ، فحشدت قومها ومن يجاورهم للحرب مع كسرى ، وأخبرت قومها قبول تلك الإجارة وتحرضهم على نصرتها " بقولها :[١٧](من الكامل)

أحيوا الجوار فقد أماتته معاً ... كل الأعارب يا بني شيبان

ما العذر لقد لفت ثيابي حرة ... مغروسة في الدار والمرجان

بنت الملوك ذوي الممالك والعلى ... ذات الحجال وصفوة النعمان".

ولم تبتعد (الهند/ الحُرقة) شريكة بطلة بحثنا هذا في قوة شخصيتها ووضوح رأيها وكونها نتاج بيئة أعطتها إمكانيات تلك القوة ومعززات تلك الشخصية فلم تقبل الخضوع أو الاستسلام مهما كلف الثمن ، ولو وقفنا عند تعريف الهند التي أجارتها(الحجيجة) كما ترجمها صاحب الأعلام / الزر كلي فهي : حرقة بنت النعمان بن المنذر بن المنذر بن امرئ القيس، من بني لخم. شاعرة، من بيت الملك في قومها بالحيرة. ، وذكر أنه لما غضب كسرى على أبيها النعمان وحبسه ومات في حبسه، ترهبت ولبست المسوح. وقد عمرت إلى ما بعد ظهور الإسلام وفتح الحيرة من قبل خالد ابن الوليد، وقدرت وفاتها عام ٧٤ هـ. " طلبها كسرى من أبيها النعمان زواج، فأنف أن يزوجها من أعجمي، فجند كسرى الجنود وفتك بالنعمان، وهربت الحرقة ملتجئة إلى بوادي العرب في خفاء" [١٨].. " بلغها وهي في بني سنان أن كسرى أرسل جنداً إلى بكر بن وائل فأرسلت تنذرهم بهذه الأبيات[١٩]: (من الوافر)

ألا أبلغ بني بكر رسولاً ... فقد جد النفير بعنقفير

فليت الجيش كلهم فداكم ... ونفسي والسرير وذا السرير

كأني حين جد بهم إليكم ... معلقة الذوائب بالعبور".

أرسل كسرى صوائح في بلاد العرب، (تنادي) أن برئت الذمة ممن يحمي أو يؤوي الحرقة،

.. ثم إن قادة جند كسرى، أرسلوا رسولين إلى بني شيبان يطلبان إليهم أن تنزل (الحرقة) (هند بنت النعمان) على طاعة منصور (قائد عربي في جند كسرى) ويعفو عن الشيبانين مما فعلوا، فلقيا الحجيجة، فرفضت ذلك "وقالت [٢٠] : (من البسيط)

قولا لمنصور لا درت خلائفه ... ما صاح فيهم غراب البين أو نعقا

من زوج الفرس يا متبول قبلكم ... من الأعارب يا مخذول أو سبقا

بالله لا نال منصور لجارتنا ... وكل جيش يجي يرجعنه فرقا

فمت بغيظك يا منصور وأحي على ... بغضاك قومي وشمر كل يوم لقا..".

فحاربهم المنصور وغلبوه ، وعاد إلى كسرى فأسنده بعددأكبر من الجند من العرب، قيل عشرين ألفاً ، مع عدة و أموال كثيرة ، فلما علمت الحجيجة بأمرهم، " قالت في قصيدة مطلعها [٢١]: (من البسيط)

ماذا أحاذر من عشرين يقدمهم ... منصور في حي غسان على نجب

من الجياد عليها الحي من يمن ... والعجم ترفل في الماذي واليلب

وعندي الأقمم الهماس في فئة ... منهم ظليم وعمار بن ذي كرب

وعقبة وعبادة والربيع إلى ... ذي العزة الفارس الحمال بالكثب

والصلت مع سالم والمالكان معاً ... ومسلم بعد بكر الفارس الأرب

ونافع وعمير والمروح في ... فرسان شيبان لا ميل ولا غضب

والأحوصان وأعواف وأحسبهم ... وابن المسيب من ذي الخيل بالقضب

يا عمرو، عمرو أجبني يا ابن ثعلبة ... يا شبه براق يوم القتل والسلب

لأجل عشرين ألفاً أضح صارخة ... في آل بكر وذا شيء من العجب

لا تكتشفوني بهذا اليوم وارتقبوا ... يومي لوقت اجتماع العجم والعرب[٢٢]

فهب القوم الذين ذكرتهم في شعرها لنصرتها ، واقتتل الطرفان وتفوق العرب على منصور وجند كسرى بوقعة تاريخية معروفة .. وهنا نلاحظ ذكاء الحجيجة وتوظيفها الاسماء من سادة القوم في شعرها فلا يستطيعون الاعتذار أو التراجع بعد قولها هذا خصوصا أن تلك الدعوة جاءت من إمرأة وليست أي امرأة

وليست النصرة لأي إمرأة أيضاً ، فهي شاعرة وظفت قريحتها الشعرية ومفرداتها لقومها ولمن نصرها وهم يعون خطورة وأهمية لسان شاعرة تكون معهم على العكس في ما لا ستوظفه ضدهم في لو خذلوها ، خصوصاً أن الجميع يعرف كان للشعر من أهمية وأثر بالغ في النفوس في العصر الجاهلي مما أفاد الحجيجة وأحسنت استغلاله .

و قد عاد كسرى بعد تلك الحادثة وجدد إرسال قوى للجيش فأرسل الطميح (قائد في جيش كسرى) وكان ضمير هذا القائد يأبى هدر دم العرب لمعرفته بقوة كسرى وجنوده وتسليحهم مقابل العرب عدداً وتجهيزاً ، فكتب كتاباً و أرسله سراً إلى بني شيبان يعلمهم ويحذرهم فأجابته صفية بهذه الأ بيات[٢٣]: (من الكامل)

لله درك من نصيح صادق ... والنصح رأيك أيها الإنسان

والله يجزيك الذي أرسلته ... إن المهيمن واصل منان

ثم سألت إذا كانوا سينصرونها ويصبرون معها أو تستغيث بغيرهم من القبائل لنصرتها ونصرة جارتها وقد خاطبت بني بكر وبني شيبان وبني عجل وبني حنيفة وبني لجيم وبني ذهل واليشكريون لكل واحد قصيدة تذكر فيها اسمهم وتحشدهم على حرب كسرى واجارة الحرقة كما ذكرت ذلك في ابياتها .

وحمل العرب على جنود كسرى ، " وتكاثر جنود العجم على العرب حتى كادوا ينهزمون، فقامت صفية بنت ثعلبة الشيبانية تقطع الحبال، فسقطت النساء عن الجمال ورأى رجالهن ذلك، فعطفوا على القتال عطفة من لا يرجو الحياة" [٢٤] ونلحظ ذكاء صفية مجدداً هنا وذكاء تعاملها مع الموقف ، حيث حركت فيهم الحماسة والشجاعة بأقوى نقطة ضعف وهي غيرتهم على نسائهم ، وهي هنا تريد القول إن ما تعرضت له (الهند) هو ما تتعرض له نسائكم الآن فأغيثوها وأغيثوهن . ثم صاحت بأعلى صوتها تنادي أخاها : (من الرجز)

يا عمرو يا عمرو الفتى بن ثعلبه

حالم على جارتك المستقربة

وزاحم العجمان عند العقب

وتذكر المصادر هجمة الرجال مع اخيها بالرغم من كثرة عدد جنود كسرى الذين كادوا فناء العرب وتدخل بني يشكر لنصرتهم فعرفت الحجيجة ببوادر النصر بل تيقنت منه هجم اليشكريون ، وجاء الفرج لـبني شيبان واحتدم القتال بينهم حتى أفترق الجمعان، "وفي اليوم التالي التقت صفية بـ (الطميح) سراً، فقالت له تحرضه على خذلان كسرى[٢٥]: (من الخفيف)

ليس للعجم نصرة في عشيرة ... أن أراد الطميح نجل الكرام

إن تولت لنا إياد انهزاماً ... كان منهم هزيمة الأعجام

إن نصر الطميح أكرم نصر ... وحنو على بني الأعمام

ونُقل أن (الطميح) وافقها على ذلك"[٢٦] .وبقي القتال في اليوم الذي يليه وكذلك في اليوم الثالث. وفي اليوم الرابع، جاءت صفية بالحرقة (هند بنت النعمان) وقالت لها كوني قريبة مني، وانتدبت فوارس قومها، ورأست عليهم أخاها عمراً، وأنشأت تقول لهم، والحرقة واقفة بجانبها[٢٧]: (الرجز)

يا عمرو يا من قد أجار الحرقة ... يا رأس شيبان الكماة المعرقة ...

"وقالت للحرقة: هذا آخر يوم بيننا وبين هؤلاء القوم فأسفري على عمرو، وأوصيه ، بما شئت، فأسفرت الحرقة (كشفت عن وجهها) بوجه زاهر (أبيض) ، وحسن باهر، وأنشدته (الهند) شعراً يأتي في ترجمتها"[٢٨] . ونُقل أن دارت بينهم حرباً شديدة وقتل العرب ومن جيش كسرى جنوداً كُثر، ثم غنموا ذهباً وفضة وكل ماهو ثمين فكانت حادثة لاتُنسى على مر التاريخ أنتصف به العرب من العجم وانتصروا ، و لعلنا لانبالغ لو قلنا أن بطلتها صفية .

٤- الحث على فعل الخير وشكره

ويتمثل في موضوعات المدح ، ولصفية صورة شعرية مكتنزة بالمعاني الايجابية التي تتراوح بين الامتنان والشكر وبين الحماسة تقول أبياتها بعفوية مخاطبة الوسيط الناصح لهم ، والمحذر لها ولقومها ، وبالرغم من كونها شاعرة جاهلية إلا أنها تفتتحها بلفظ الجلالة و بالدعاء وتكرر المفردة لمرتين بهذا الغرض نفسه وتكرره مراراً بألفاظ أخرى للغرض نفسه من قبيل : (لك الجزاء ، ولعمر جدك ...) ، بهذه الأبيات [٢٩]: (من الكامل)

لله درك من نصيح صادق ... والنصح رأيك أيها الإنسان

والله يجزيك الذي أرسلته ... إن المهيمن واصل منان

أصبحت في شيبان حول صنائع ... فلتستعد لحملها شيبان

ناصحتهم وشركت في محدودهم ... والسر عندك فيهم إعلان

فلك الجزاء بمثلها في حادث ... لا تأمنن، وأين منك أمان

والدهر يأتي بالقصارى باقياً ... فاعلم فديتك أنه خوان

ولسوف يدعوني غداً فأجيبه ... ولسوف تقضى فرصه ويدان

لكن دون السلم سمراً ذبلاً ... لمعاشري من معشر فتيان

وصوارم مشحوذة وسوابغ ... وأبو جياد كلهن حصان

واليوم يوم حجيجة من وائل ... جاءت بها الأنباء والأزمان

ولعمر جدك إن لحنا جنده ... فمعي له الشفرات والمران

تبدأ الشاعرة قصيدتها بفخر كبير بقومها وتفوقهم ونصره بمعركة كبيرة وحرب شرسة ونلحظ اسلوبها البلاغي في " عنصر المقابلة بين (عزيزة ، و أهان) .. وبلاغتها تند عن لسانهن بعفوية طبيعية .. ثم تعدد عناصر الجيش الذي يقاتل معها وأدواته وميزاته، وهنا تستخدم الجانب البلاغي اللف والنشر ، فتذكر العربان عموماً ، ثم تفنّد تفاصيل جيشها بعده وعتاده، فلديها القائد الصارم الذي يقتحم ساحات الوغى ويكثر الطعن في أعدائه، وتكني عن الحرب بالكريهة، لأنها مكروهة فعلاً، وهي هنا تستخدم الجمل المتساوية بالمعنى واللفظ، وهو يقطف ثمار حروبه دائماً، ونلاحظ التضاد في بيتها (الحرب والحروب - السلامة ففي الحرب هو المجرب وفي السلامة هو إنسان، وبكلمة (إنسان) تعني الكثير [٣٠]. وفي المعنى السابق معنى الامتنان والشكر للوسيط نجدها تقول :[٣١]

قل للطميع: فدته فتيان الوغى ... عندي لكسرى القلب والأبدان

بالله أفزع من كثيف بجنوده ... وأنا وأن تجيب لدعوتي العربان

فليأت كسرى والأيافث بعده ... والترك والأدلام والحبشان

ولدي أبيض صارم ذو صعدة ... عند الكريهة باسل مطعان

وجني حرب في الحروب مجرب ... ولدى السلامة إنه إنسان

هزم الجيوش بجحفل من قومه ... لاقيه يوم لقائه خسران

عندي السلاهب والقواضب والقنا ... ومدججون، الشمط والشبان

وأنا الحجيجة من ذؤابة وائل ... وأنا المجيرة والقنا رعفان

يا وائل، ثوروا فذا ميقاتكم ... ولكل أمر يا جليل زمان

هذا زماني قد دنا ميقاته ... هذا الأوان لما زعمت أوان

بها الكثير ؛ فهو الكريم والمتسامح والفاضل والرؤوف ... إلخ، وهو إذا متفوق في الحالتين (الحرب والسلم)، وتلك ميزات فريدة نادرة في صاحبها، وقد تمكن من هزم جيوش كسرى بجيسه لحسن تدبيره وتجربته في الحروب، ونلاحظ هنا اختلاف اللفظين رغم دلالتهما الواحدة (الجيوش - جحفل)، و لاقيه - لقائه بين الفعل والاسم جناس لطيف، ومازالت تسهب وتفصل بغرض التباهي بجيش قومها، ففيه الخيول السلاهب الطويلة، وفيه السيوف والرماح ... وكذلك الجند الشجعان المدججون بالدروع والسابغات على اختلاف أعمارهم، فمنهم الكهول ومنهم الشبان، وهذه كناية عن خروج أفراد قومها إلى الحرب بصغيرها وكبيرها تلبية لدعوتها لهم للقتال، وهنا يحق لها أن تفخر بما يملكه قومها وجيشها من قوة وسطوة، فتصرح بأنها : (أنا الحجيجة من ذؤابة وائل بتقسيم لفظي متساو بين شطري البيت فهي من الطبقة العليا من قبيلة وائل، وهي تجير من يلوذ مستنجداً بها، وهذه من صفات النساء الحرائر في زمن الجاهلية اللواتي يحق لهن أن يجرن اللائذ الملتجئ إليهنّ، وذلك بقوتها وقوة جيشها وهذا يبدو من الاستعارة التي استخدمتها بقولها : (والقنا رعفان) أي يقطر دماً من الأعداء، وفي بيتها الأخير تظهر نتيجة المعركة تلخصها الشاعرة بقولها مستخدمة الجناس بين اسم القبيلة والفعل (تغلب - تُغلب الأقران) وجعلتها خاتمة وصفها للحرب الدائرة لأن هكذا جيش يملك ذلك العدد وتلك القوة سيكون هنالك الغالب ؛ قوم الحجيجة والمغلوب جيش العدو، وهذا هدف الشاعرة صفية بنت ثعلبة من مقدمة قصيدتها ثم تفصيل الذكر في عناصر المعركة.

ومما تقدم نلاحظ على اسلوب الشاعرة صفية البساطة وسهولة التراكيب ، ووضوح المفرادات وتجلي المعاني للقارئ بوضوح ، ولعل الغاية المرادة من اشعارها هي التأثير ، و الحماسة و تشجيع قومها على القتال بصورة واضحة مباشرة ، ولذلك انشغلت بذلك المعنى عن اختيار المفردات ذات الشعرية العالية ، بالرغم من وجود الصور الفنية والتراكيب البلاغية المميزة ، اسلوبها تقريري في اغلب قصائدها لإن هدفها في التحريض على الحرب واضح وصريح وهو غايتها الرئيسة .

المبحث الثالث : أشكال الحماية الاجتماعية في شعر الحُجيجة

لم يكن الحس الفني عند صفية في اشعارها باقل من غيرها من الشواعر الجاهليات ، فقد ورد في شعر صفية موضوعات شعرية متعددة مثلت أشكالاً اجتماعية مختلفة عاشتها الشاعرة ، وانتجتها البيئة الجاهلية فظهر في ثنايا أبياتها الشعرية ، وصورها الفنية ، وتراكيبها ومفرداتها ، ومما هيمن على موضوعات

شعرها الحماسة وجاءت في أحدى عشرة قصيدة ، ثم يليها الفخر ولها فيه أربع قصائد ، وثم أقل من ذلك الهجاء بقصيدتين ، كما لها قصائد مدح وقصائد ذات موضوعات عامة متنوعة مختلفة ، ومن أهم الأشكال الاجتماعية التي صورها شعر صفية وهو مما يُعنى به بحثنا هنا ما يأتي :

١- الانتماء الاجتماعي والعربي

ان نظام المجتمع العام و السائد في العصر الجاهلي هو نظام يشجع على الترابط و التماسك بين أفراده مع بعضهم البعض بين افراد القبيلة خصوصاً وبين ابناء القومية عموما ؛ ، والعربي عموماً يهتم وينتصر لعروبته ، وفي العصر القديم كانت في أوضح صورها حتى تصل حد الطبقية والتعصب ولعل النبي محمد صلى الله عليه واله وسلم في قوله : (قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ. وما في هذا المعنى في أكثر من رواية دليل التعصب الجاهلي السائد بين العرب على الاعاجم والعكس ، والانتماء الاجتماعي و الترابط المجتمعي يظهر في شعر صفية الشيبانية واضحاً وجلياً ، وهي تتفاخر بالهوية العربية و الانتماء إلى القبيلة المعروفة بمجدها و شجاعتها وعروبتها . وتقف صفية بنت ثعلبة الشيبانية متفاخرة بقومها وترابطهم القبلي ووحدة الدم التي تجمعهم ودفاعهم عن قوميتهم واصلهم فشجاعة افراد قبيلتها وما يجاورها من قبائل مدعاة فخر وعز ، ودورها معهم أن تشحذ الهمم لحماية دخيلتهم ونصرتها والدفاع عنها فلا يتخلون عن تلك الكرامة ولا تلك الحماية التي عهدتها منهم ، وفي ذلك تقول صفية :[٣٢]

قُولا لِمَنْصُورَ لا دَرَّتْ خَلائِفُهُ ما صاحَ فِيهِمْ غُرابُ الْبَيْنِ أَوْ نَعَقا

مَنْ زَوَّجَ الْفُرْسَ يا مَتْبُولُ قَبْلَكُمُ مِنَ الْأَعارِبِ يا مَخْذُولُ أَوْ سَبَقا

وهنا نلاحظ التعبير الواضح عن الهوية العربية والقومية وعدم تقبل الاندماج مع الأعاجم ولا أن تكون فكرة التجانس بينهما واردة خصوصاً كونها إجبارية من الطرف الأقوى (كسرى / رجل) تجاه الطرف الأضعف والمظلوم (هند / إمرأة قُتل أبوها) ، وتذكر الشاعرة أن هذه الفكرة غير واردة ولا مقبولة في السابق ولا الآن . و نلحظ اسلوب الطباق في قولها (الفرس / الأعارب) للدلالة بين هذا التباعد والتباين بين الطرفين . وهذا ليس البيت الوحيد الذي يرد فيه الأسلوب بالمعنى ذاته إنما كذلك ورد بقولها : [٣٣]

لا تكتشفوني بهذا اليوم وارتقبوا ... يومي لوقت اجتماع العجم والعرب

وتذكر الشاعرة مفردات مثل (الأعارب واشتقاقتها) فقط لتضمر أن العدو المسكوت عنه هم العجم وكذلك لتستثير حمية العرب وتذكرهم بتلك العروبة ومقوماتها وقيمها الأصيلة التي تأبى الظلم أو الضيم كما في قولها : [٣٤]

شيبان قومي والأعارب دعوتي ... وعزيزة فيهم فلست أهان

بالله أفزع من كثيف بجنوده ... وأنا وأن تجيب لدعوتي العربان

أو العكس حين تذكر (العجم) ، بغية استفزاز القوم ممن تستغيث بهم ولتحرك شعور الأنفة والكرامة ضد كسى وجنوده أو تفتخر بنصرة القوم عيلهم من قبيل وقولها :[٣٥]

ساقت فوارس شيبان لمعشرها ... خير الصنائع فيها طفرة العجم

وكذلك في المعنى ذاته قولها :[٣٦]

يا عَمْرُو يا عَمْرُو الْفَتَى بْنُ ثَعْلَبَةْ حامِ عَلَى جارَتِكَ الْمُسْتَقْرَبَةْ
وَزاحِمِ الْعُجْمانَ عِنْدَ الْعَقَبَةْ

وقالت كذلك : [٣٧]

الْوائِلِيَّاتِ الَّتِي تَحْمِي الْبُهَمْ يا آلَ بَكْرٍ لَا تَهُلْكُمُ الْعَجَمْ

و قولها :[٣٨]

كِبْرُ النَّوائِبِ وَالْأُخْرَى عَلَى الْأَثَرِ أَتَصْبِرُونَ لِشَعْواءٍ مُلَمْلَمَةٍ
فِيها الْأَعاجِمُ بِالنُّشَّابِ وَالْوَتَرِ أَمْ لَسْتُمُ أَهْلَ صَبْرٍ فِي لَوازِمِها

فنجد المفردات : (العجمان ، العجم ، الأعاجم ..) هي معنى

٢- الانتماء العائلي و القبلي :

يتأثر الشاعر بما حوله فهو صدى للجماعات الانسانية بمشاعرها واحتياجاتها ، فموضوعاتهم واهتماماتهم هو ما يثير قريحته الشعرية وموهبته قاصداً او غير قاصد فيلبي ، فهو لسان قبيلته الناطق بسلمهم وحربهم ومن واجبها مدحهم والافتخار بهم ، فالقبيلة تمثل انتماء الفرد وهويته وهو بالمقابل مخلص لها و مستعد للدفاع عنها وحمايتها ، ينصرها ويذود عنها في السلم والحرب ، " و القبيلة تعد نفسها دولة قائمة بذاتها لها رئيسها و أرضها وشعبها" [٣٩]، و افراد القبيلة جميعاً يضعون انفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها ...[٤٠]وقد يكون التعصب القبلي سائدا ومعروفا في ظل بيئة مثل بيئة العصر الجاهلي وخصوصا ما وصلنا من صراع بين القبائل وحروب استمرت لأعوام من قبيل داحس والغبراء و البسوس وغيرها ،ولو نظرنا إلى تعليل منطقي لذلك التعصب القبلي يمكننا القول أن السبب " هو اتجاهات الفرد وخضوعه لسطة الجماعة التي ينتمي إليها مع رفض الجماعات الأخرى ، ويرتبط بذلك ميل إلى رؤية العالم في اطار جامد.. مع ميل إلى استخدام العنف في التعامل مع الأخرين "[٤١]. و تظهر صورة الانتماء من خلال مدح الشاعر لنفسه وقبيلته ، و يرى يوسف خليف أن العقد الاجتماعي بين الشاعر والقبيلة تحول إلى (عقد فني) جعلها معبرا عن مشاعرها وتطلعاتها قبل أن يكون معبراً عن مشاعره واتجاهاته الشخصية لذا اتجهت الـ (أنا) نحو الـ (نحن) من خلال الفخر والإشادة بالقيم الجماعية التي تمثلها القبيلة فكانت الغاية قبلية وإن تكن الوسيلة فردية [٤٢]. وقد تتضخم الأنا كثيرا عند االفرد الجاهلي بسبب استناده على روح الجماعة والعصبة ، " ووجد الشاعر الجاهلي نفسه أن عزه وسموها في عز القبيلة وسموها مما دفعه مستغلا صوته وشاعريته متغنياً بنسبة الذي يراه أعلى الأنساب ودمه من أنقى الدماء ، وقبيلته من أسمى القبائل ، .."[٤٣]. وقد أجادت صفية الفخر بقومها بالشجاعة، والبطولة، والكرم، والحفاظ على الجوار، وإغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج ، ومن وصفها لصفات قومها ، مما يجعلها سعيدة بذلك الانتماء هي وكل افراد قبيلتها " قولها [٤٤]: (من البسيط)

هذا مقالي وقومي قائلون معي ... ما أقول، لسان صادق بفم

أنا الحجيجة من قوم ذوي شرف ... أولي الحفاظ وأهل العز والكرم

والعز فيهم قديم غير مقترف ... الجار فاعلم عزيزاً داره بهم

قولوا لكسرى أجرنا جارة فثوت ... في شامخ العز يا كسرى على الرغم

نحن الذين إذا قمنا لداهية ... لم تبتدع عندها شيئاً من الندم

نحيط جارتنا من كل نائبة ... ونرفد الجار ما يرضى من النعم

وكذلك " تقول : [٤٥]

أحـيـوا الجِوارَ فـقـد أمـاتَتْهُ مـعاً كـل الأعـاربِ يـا بنـــي شيبانِ

مـا العُـذْرُ قد لفَّت ثيابي حُـــرَّةٌ مـغروسـةٌ فـي الـدُّرِّ والـمرجـانِ

بـنـتُ الـملوكِ ذوي الممالكِ والعُلى ذاتُ الـحـجـالِ وصـفـوةُ الـنـعمانِ

أتَـهـاتَـفـونَ وتـشحذون سيوفكم وتـقـوِّمـونَ ذَوابـلَ الـمُـــرّانِ

وتـسوِّمـون جنودكم يا معشـري وتـجـــددون حـقـيـبة الأبدانِ

شـيـبـانُ قـومي هـل قـبيلٌ مثلُهم عـنـد الـكـفـاح وكـرَّةِ الفرسـانِ

لا والـذوائبِ مـــن فروعِ ربيعةٍ مـا مـثـلُـهـم فـي نائبِ الحَدَثانِ

قـومٌ يـجيرونَ اللهيفَ مـن العدا ويـحـاطُ عمري مـن صروفِ زماني

وتبدو الشاعرة من خلال جو القصيدة وقد أطلقت العنان لعاطفتها، وكأنها تقف على مشرفة من قومها في خطبة توجيهية مشحونة بالانفعال العاطفي، وكأنها قائد عسكري يقود جيشه في مناورة عسكرية لمعركة مرتقبة مهمة وحاسمة، وتطلب من قومها إلى إعلان تأييدهم وولائهم للقبيلة حفاظاً على هويتها في الهتاف وإعلاء الأصوات، تبعاً للوصف الذي ذكرته في القصيدة، فشحذ سيوفهم(وتشحذون سيوفكم...)، وتقويم الرماح (ذوابل المران...)، ووضع العلامات المميزة للمقاتلين(وتسوِّمون جنودكم...)، وتجديد الدروع (وتجددون حقيبة الأبدان...) تثير فيهم الحمية بصوتها المؤثر المثير للمشاعر والرجولة والبطولة[٤٦]. و الشاعر هو أحد أهم أفراد القبيلة و لا شك في أخلاصه لها والدفاع عنها ، ويتمثل ذلك الدفاع بمدحها ومدح خصال أفرادها مرة ، وبشحذ الهمم والقناعات في الدفاع عن هذه القبيلة خصوصاً لما له من رأي مهم وأثر بالغ في نفوسهم فهو ركيزة اساسية في صنع القرار ، قرار الحرب ، و السلم و المنازعات وعقد الصلح ، أو اشعال الحرب كما في دور صفية .

٣- الأنفة و رفض الظلم :

الأنفة العزة والحمية [٤٧] ، ورجل حمي الأنف إذا كان أنفاً يأنف أن يضام [٤٨]، وأنوف : أبي الطبع ، شريف الطبع عالي الهمة عزيز النفس عزيز الأنف .." [٤٩]. ولعل هذا الشكل الاجتماعي والأخلاقي والتربوي الذي ساد في عصر الحجيجة هو ما خلق منها تلك الشخصية وتلك الأنفة ، فلم تقبل الظلم ولم تتقبله ، بل وفضلت

الموت مع قومها ومن يجاورهم دفاعاً دون ذلك المبدأ ، وهو مما يعني انها تشربته وتغذت عليه فهو عندها ليس بموطن نقاش أو تردد ولا شك إنما تلوم من بتأخر وتعاتبه ، بل وتجد أن من ينطق بغير هذا هو منطوق شؤم وكره وخذلان وفيه تقول :[٥٠]

مـا العُذْرُ قد لفَّت ثيابي حُـــرَّةٌ مـغروسـةٌ فـي الـدُّرِّ والـمرجـانِ

بـنـتُ الـملوكِ ذوي الممالكِ والعُلى ذاتُ الـحـجـالِ وصـفـوةُ الـنـعمانِ

وهنا تسأل من خلال أحد اساليب البلاغة وهو الاستفهام الاستنكاري أو الانكاري ، الذي خرج من السؤال الحقيقي إلى معنى التعجب والتهكم والاستغراب فنجد تعجب واستنكار الحجيجة ان لا عذر يقبل في التخلي عن من استجارت بهم ، فقومها أهل حمية ، والمستجيرة بها بنت ملوك ، وهي صفوة النعمان والعرب تأنف اذلال العزيز، وترى التخلي عن نصرته منقصة .. وقد صورت تلك الاستجارة بأن المستجيرة بها قد لفت ثيابها وتسترت بها ، فصارت الثياب سترة المجير والمستجار فتوحد الساتر والمستور ...

٤- الشجاعة والفخر :

لم تتقبل العرب العرب الجُبن عند الرجال أو النساء ، فقد ذكر التاريخ مواقف للنساء لاتقل شجاعة وبطولة عن الرجال ، ولعل موقف الشاعرة صفية في أكثر من موطن لا يمكن أن يُفهم إلا أنه من أوضح مواطن الشجاعة وصورها فهي حين تحث قومها على قتال كسرى فهي لاتهاب (الموت (موتها المباشر أو غير المباشر بموت أهلها) ، لكن الموت بشجاعة أهون من الحياة بذل ، و بالتأكيد هذه الشجاعة هي نتاج تربية وشجاعة أب و أخ و بيئة ومجتمع بأكمله وهنا نجدها تفخر بقومها وعزتهم :[٥١]

يا أَيّها الشمّ أَنتم حافِظوا ذممي وَأَنتمُ فلعمري العزّ في عمري

ويرى ابن رشيق؛ أن " الافتخار هو المدح نفسه، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه وكل ما حسن في المدح حسن في الافتخار، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار " وهو ما وجدناه عند صفية في قولها ، حين تفخر بنفسها وقومها بـ :[٥٢]

أنا الحجيجة من قوم ذوي شرف ... أولي الحفاظ وأهل العز والكرم

والعز فيهم قديم غير مقترف ... الجار فاعلم عزيزاً داره بهم

قولوا لكسرى أجرنا جارة فثوت ... في شامخ العز يا كسرى على الرغم

ونلحظ فخر الـ(الحُجيجة) بألفاظ من قبيل : (أنا الحجيجة) ، (قوم ذوي شرف) ، (أولي الحفاظ) ، (أهل العز والكرم) (العز فيهم قديم) ، (عزيزاً داره) ، (أجرنا جارة) ، (شامخ العز) فهي في كل مفردة وفي كل بيت في هذه القصيدة وفي اغلب شعرها نركز على فخرها بنفسها وبقومها فهي من قوم عرفوا بالشرف والعز وذلك الشرف والعز قرينا الشجاعة فلا شرف لمن يقبل الظلم لجارته ومن استغاث به ولن يكون لهم شموخ أو عزة ، فحين استجابوا وانتصروا وغنموا صارت تتفاخر بصفاتهم من عزة وشموخ جديد يضاف ل (العز القديم) وهي هنا كأنها تعلل ذلك العز والشموخ وتوضح أن(عزيزاً داره)

هي بسبب (أجرنا جارة) .. فهي بأبيات قليلة اقتطعتها من القصيدة تتجلى لنا شجاعتها وفخرها بابهى الصور واجملها .

٥- الاستجارة :

في اللغة يقال في معنى استجارَ، استجارةً، فهو مُستجير، والمفعول مُستجار ، استجار فلانًا : سأله أن يؤمّنه ويحفظه، قال تعالى : {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ} " [٥٣] التوبة (٦). وكذلك يقال " اِسْتَجَارَهُ لِيُعِينَهُ: اِسْتَغَاثَ بِهِ. (اِسْتَجَارَ بِصَاحِبِهِ) جَاءَ يَسْتَجِيرُهُ: يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُؤَمِّنَهُ وَيَحْمِيَهُ" [٥٤] . والاستجارة كانت قيمة أخلاقية مهمة وشائعة في المجتمع الجاهلي ، وقد فصلنا كيف مثلت الحادثة بين هند بنت النعمان وصفية أجمل صور تلك الاستجارة ، وكيف اغاثت الحجيجة من لجأت إليها واحتمت بها ورفضت من يتنصل عن تلك الإجارة وعاتبت من يتردد بقبولها ، ولم تفكر ابداً في التخلي عن من استجارت بها مهما كلف الثمن ومن ذلك قولها :[٥٥]

يا عَمْرُو يا عَمْرُو الْفَتَى بْنُ ثَعْلَبَةْ حامِ عَلَى جارَتِكَ الْمُسْتَقْرَبَةْ
وَزاحِمِ الْعُجْمانَ عِنْدَ الْعَقَبَةْ

وقالت كذلك :

إِيهاً أَجيبوا بني بكرٍ حَجيجتكم ما عِندَكم ويحكم من غاية الخبرِ

كذلك قولها :

كِبْرُ النَّوائِبِ وَالْأُخْرَى عَلَى الْأَثَرِ أَتَصْبِرُونَ لِشَعْواءٍ مُلَمْلَمَةٍ
فِيها الْأَعاجِمُ بِالنُّشَّابِ وَالْوَتَرِ أَمْ لَسْتُمُ أَهْلَ صَبْرٍ فِي لَوازِمِها
عِنْدَ الْحَفائِظِ وَالْجاراتِ وَالْخَفَرِ إِنِّي أَجَرْتُ بِكُمْ يا قَوْمُ فَاصْطَبِرُوا

وهنا الاستجارة بنوعين نوع يمثل استجارة الهند بالحجيجة ونوع يمثل استجارة الحجيجة بقومها من اجل الاستجارة السابقة ، وقالت صفية في الاستغاثة بقومها : [٥٦]

أني أجرت بكم يا قوم فاصطبروا ... فالصبر يحلل فوق الأنجم الزهر

إيهاً أجيبوا ... بني بكر حجيجتكم ما عند كم ويحكم من غاية الخبر

يا أَيُّها الشُّمُّ أَنْتُمْ حافِظُو ذِمَمِي وَأَنْتُمُ فَلَعَمْرِي الْعِزُّ مِنْ عُمُرِي
إِمَّا صَبَرْتُمْ فَلا أَدْعُو لِغَيْرِكُمُ وَإِنْ جَزِعْتُمْ أُنادِي كُلَّ ذِي حُضُرِ
بِكُلِّ سامٍ إِلَى الْهَيْجاءِ ذِي شَرَفٍ وارِي الزِّنادِ كَرِيمِ الْجَدِّ مِنْ مُضَرِ
ذِي مِرَّةٍ لا يَخافُ الْجُنْدَ إِنْ كَثُروا فِي سادَةٍ قادَةٍ مَعْرُوفَةٍ صُبُرِ

فهي تحث قومها على قتال كسرى وقبول استجارة الهند وإجابتها وبذلك ترد أساليب بلاغية " فنراها تورد الجناس بين الفعل والاسم (فاصبروا - فالصبر) وهو يعطي نغماً موسيقياً داخلياً للبيت، ثم إنها تستخدم استعارة لطيفة جميلة حين تشخص الصبر بشيء يرتقي فوق النجوم التي تشبه الزهر ، وهي بجملتها كناية عن ثواب الصبر وعظمته"[٥٧] . أما في البيت الثاني هي تذكر قومها بأهمية استجابتهم لندائها وكيف أن تلك الإجابة ذات مردور كبير وايجابي على القبيلة أجمع أما في البيت الثالث فتعدد مزايا قومها وصفاتها الايجابية " ثم تختم البيت بجناس معبر وجميل (فلعمري - عمري) فالأولى للقسم والثانية للعمر الزمني "[٥٨].ثم تنبه على أهمية تلبية النداء وضرورته وأن لا يضطروها لتستعين بغيرهم من القبائل مما سيجعله عاراً لا ينسى على مر الأزمان . وكذلك أوردت اسلوب " المقابلة بين صبرتم وجزعتم وكذلك بين (لا أدعو – وأنادي) طباق سلب .. ونلاحظ هذا التقسيم الحسن بقولها (بكل سام - ذي شرف - واري الزناد - كريم الجد) وواري الزناد أيضاً كناية عن توقدهم لكل حرب ."[٥٩].

الخاتمة :

الهوامش

[١] يُنظر : الكامل ابن الأثير : ٩٤/٢، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : ٩٢

[٢] الحيوان ، الجاحظ : ٩/ ١٣٥

[٣] الحيوان : ١/ ٣٨٣

[٤] المصدر نفسه : ٦٩

[٥] المصدر نفسه

[٦] حماسة البحتري : ٢٠

[٧] ينظر في أدب ما قبل الاسلام ، محمد عثمان علي : ٤٧

[٨] المجتمع العربي القديم ، محمد الخطيب : ٨٠

[٩] ينظر أنفة المرأة العربية في العصر الجاهلي الحجيجة الشيبانية أنموذجاً، د. علي عبد الرحمن الفيتوري :٣

[١٠] المرأة في شعر الصعاليك : ١٨

[١١] الأغاني ١٠/ ١٣ ، الأمالي : ١٠٦/٢

[١٢] الأغاني : ١٣٧/١٨

[١٣] تاريخ الادب ، شوقي ضيف : ٧٣

[١٤] معجم الشعراء الجاهليين ، عزيزة فوال : ٢٣٨

[١٥] شاعرات العرب والجاهلية ، بشير يموت : ١٦٦

[١٦] معجم الشعراء الجاهليين : ٢٣٩

[١٧] شاعرات العرب والجاهلية ، بشير يموت : ٢١

[١٨] الأعلام ، الزركلي : ١٢٢/٨

[١٩] المصدر نفسه

[٢٠] شاعرات العرب والجاهلية : ٢١

[٢١] المصدر نفسه : ٢٢

[٢٢] شاعرات العرب والجاهلية : ١٩

[٢٣] نفسه : ٢٣

[٢٤] نفسه

[٢٥] شاعرات العرب ووالجاهلية : 24

[٢٦] شاعرات العرب والجاهلية : 23

[٢٧] المصدر نفسه

[٢٨] المصدر نفسه

[٢٩] شاعرات العصر الجاهلي : 21

[٣٠] الملامح البلاغية عند الشاعرات الجاهليات ، ماجدة حسن حبيب : ١٣

[٣١] شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام : 17

[٣٢] شاعرات العصر الجاهلي : 19

[٣٣] المصدر نفسه : 13

[٣٤] المصدر نفسه : 22

[٣٥] المصدر نفسه : 12

[٣٦] معجم الشاعرات في الجاهلية : 22

[٣٧] المصدر نفسه : 24

[٣٨] المصدر نفسه : 22

[٣٩] صورة الشاعر المحارب في العصر الجاهلي ، ضيف الله محمد عواد المزايدة : ٢١

[٤٠] ينظر : العصر الجاهلي ن شوقي ضيف : ٦١

[٤١] التربية إزاء تحديات العصر والعنف في العالم العربي، علي اسعد وطفة : 29

[٤٢] دراسات في الشعر الجاهلي ، يوسف خليف : ١٧٤-١٧٥

[٤٣] الدوافع المحفزة لتضخم الذات في الشعر الجاهلي الانتماء والفروسية مثلا مثالا، د. كاظم محراث ، جليل داوود : 11

[٤٤] المصدر نفسه

[٤٥] شاعرات العصر الجاهلي :20

[٤٦] الصراع الاجتماعي في عاطفة المرأة الجاهلية شاعرات بكر انموذج ، سمية حسن عليان : ٢٦٦

[٤٧] دراسات في الشعر الجاهلي ، يوسف خليف : 4-5
[٤٨] المعجم الوسيط : مادة (أنف)
[٤٩] نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد ، ابراهيم اليازجي : 86
[٥٠] شاعرات العرب في الجاهلية : 13
[٥١] المصدر نفسه : 15
[٥٢] المصدر نفسه
[٥٣] معجم اللغة العربية المعاصر ، أحمد مختار : 188
[٥٤] معجم الغني، عبد الغني ابو العزم : 1/ 2143
[٥٥] معجم الشاعرات في الجاهلية :
[٥٦] نفسه
[٥٧] الملامح البلاغية عند الشاعرات الجاهليات ، ماجدة حسن حبيب : ١٢
[٥٨] المصدر نفسه : 12
[٥٩] المصدر نفسه : ١٣

المصادر والمراجع :

- تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف، مصر، دار المعارف - مصر، الأولى، ١٩٦٠ - ١٩٩٥ م .
- الدوافع المحفزة لتضخم الذات في الشعر الجاهلي الانتماء والفروسية مثلا مثالا، د. كاظم محراث ، جليل داوود ، مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الاجتماعية ، عدد ٢ ، ط١ ، ٢٠٠٦ م .
- التربية إزاء تحديات العصر والعنف في العالم العربي، علي اسعد وطفة ، مركز الامارات للدراسات والبحوث ، عدد٦٩، ط١ ، ٢٠٠٢م.
- معجم اللغة العربية المعاصر ، أحمد مختار ، عالم الكتب ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٨م.
- دراسات في الشعر لجاهلي ، يوسف خليف ، مكتبة الغريب ، ط١، مصر - القاهرة .
- صورة الشاعر المحارب في العصر الجاهلي ، ضيف الله محمد عواد المزايدة، رسالة ماجستير اشراف الدتور خليل الرفوع ، جامعة مؤتة ، ٢٠١٣م.
- الأغاني طبعة دار الكتب
- شاعرات العرب في الجاهلية والاسلام بشير يموت ، المكتبة الأهلية - بيروت-ط ١.
- أنفة المرأة العربية في العصر الجاهلي الحجيجة الشيبانية أنموذجاً ، د علي عبد الرحمن الفيتوري ، مجلة العلوم الانسانية والتطبيقية ، مجلد ٣٢، عدد١ ، ٢٠١٩م.
- في أدب ما قبل الاسلام ، محمد عثمان علي ، دار الأوزاعي ، ط٢، ١٩٨٣
- في المجتمع العربي القديم ، محمد الخطيب ، دار علاء الدين ، دمشق ١، ٢٠٠٥م.
- معجم الشعراء الجاهليين ، عزيزة فوال بابيتي ، دار صادر ، بيروت ،ط١، ١٩٩٨م.
- الصراع الاجتماعي في عاطفة المرأة الجاهلية شاعرات بكر انموذج ، مقال منشور في مجلة الجيل الدراسات الادبية والفكرية ، عدد ٧٩.

- الملامح البلاغية عند الشاعرات الجاهليات ، ماجدة حسن حبيب ، بحث منشور في مجلة الاستاذ للعلوم الانسانية والاجتماعية ، مجلد ٦١، عدد ٣ ، عام ٢٠٢٢م.
- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف ، دار المعارف ، مصر ، ط٣ ، ٢٠٢٢م.
- دراسات في الشعر الجاهلي ، يوسف خليف ، مكتبة غريب ، د.ط ، ١٩٨٦م
- المعجم الوسيط ، تحقيق ابراهيم مصطفى واخرون ، مجمع اللغة العربية – القاهرة ، دار الدعوة العربية ، د.ت .
- نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد ، ابراهيم اليازجي ، مطبعة المعارف ، مصر ، ١٣٢٤هـ .
- معجم الغني، عبد الغني ابو العزم ، قنديل للطباعة والنشر ، الامارات دبي ،٢٠١٧ م.